

في النقد الرومانتي

## النقادة الكبير ليسنج

(Lessing)

حياته ومذهبه

(١٧٨١ - ١٧٢٩)

للأستاذ خليل هندواي

لجواد بيتي علوفة مضاعفة) . حتى إذا بلغ السابعة عشرة من عمره انكب على علم اللاهوت ، ثم تعلمت للحياة بمد أن أنجز تعلمته للكتب ، تلك الكتب التي قال عنها في إحدى رسالاته « إنها صنعت مني عالماً عارفاً ولم تصنع مني إنساناً ، سأبدأ عاجلاً بدرس أطوارى » فترك علم اللاهوت وعمل على جمع رواياته التمثيلية ، وقد حثه قريب له أديب على الاختصاص بهذا الفن ، فمثلها عادة لامة نجحت في أداء تمثيلها ، فزاده ذلك انصرافاً - إلى هذه الحلية ، حتى ظن أن هذا الفتى لن ينصرف بعد اليوم عن الفن الروائي .

على أن الضعف ليرز في هذه القطع التي عرضها ، ويقب على أسلوبها اللون الفرنسي الذي كان يصبغ جميع الآثار الألمانية ، وكان مذهبه فيها نفس المذهب المدرسي الذي كان (راسين وكورني وموليير) يتدعونه ويقومونه . كأنه كان يؤمن بجبال هذا المذهب ويحمل نفسه على الأخذ به . ولكنه في بعض نظراته يشن القارة على هذا المذهب ، ويطلب إلى معاصريه ألا يكونوا مقلدين لأذواق غيرهم . وإنما الأجدر بهم أن يتفهموا مذاهب غيرهم وألا يكونوا مقلدين لها . ونهاهم عن التفاهت على أدب أمة واحدة كالأمة الفرنسية ، وهناك آداب مهمة كأدبها جديرة بالدرس والتحصيل ، وفي هذا الصدد قال كلمته المأثورة « إذا أراد الألمان أن يتبعوا مذهباً يلائم طبيعتهم وجيلتهم فليتبعموا الأدب الإنجليزي الذي هو أدنى لهم من الأدب الفرنسي »

وقد أشار في أكثر من موضع إلى هذه الروح التي شاء أن يفرسها في أدباء عصره . وهو الذي كتب في إحدى رسالاته ينتقد المؤلف المسرحي (جوتشيد) ويؤاخذها لاسترساله إلى الروح الفرنسية : « يطمع هذا الكاتب في أن يمثل دور المبدع في مسرحنا الجديد ، ولكن ماهو هذا المسرح الجديد ؟ انه مسرح نصف روحه فرنسية . . . ولعل صاحبنا لا يحفل بهذه الصفات إن لامت الروح الألمانية أولاً ؟ وهو لو أنتم النظر في آثارنا القديمة لأوحت إليه أن الأدب الإنجليزي هو أكثر ملاءمة لروحنا ، وأتينا تنوق إلى التأمل والتفكير أكثر بما يسمح به الأدب الفرنسي لنفسه ، وإن الأدب الذي تمثل فيه الزوجة والمظلمة والظلمة هو أكبر سلطاناً علينا من أدب الرقة واللوعة والحب ، وإن البساطة في الأدب لتضئنا أكثر من حالته المركبة

ما عرف الأدب ناقداً كليسنج جياراً صحيح المقاييس ، بليغ التأثير ، لا يبني مذهبه على المدرسة الأدبية القائمة في عصره ، وإنما يبني مدرسته الجديدة لترتكز عليها مدرسة للأدب الجديدة ، يوم لم يكن عند الجرمانيين أدب بارز . فخار النقادون في تفهم هذا الناقد الذي افتتح أدب أمة عظيمة بالنقد ، وإنما عهدم أن يخلق الأدب النقد كما يخلق الأديب الناقد .

نشأ ليسنج ميالاً في بدء عهده إلى أدب الأوائل ، وما كان يتمكن من هذا الأدب حتى تفتح لعينه أفق جديد يريد استكشافه ، يبحث معاصريه على السرى معه حينئذ ليكون لهم مثل حظه من هذا الاستكشاف ، وما أصدق من قال : ( كان الأدب الألماني قبل ليسنج مفازة يقتقر السائر المتخبط فيها إلى هاد ، وهذا الهادي لم يكن إلا إياه ) هذا الذي أنار المسالك وهدى الأدباء إلى سبيل في الأدب قويم ، يمدى لهم مكامن الإبداع ومواطن الخطأ ، وأسس الأدب الجديد على قواعد النقد ، وصاغ الشعر مزيجاً من الفن والأدب والفلسفة ، فكانت نفسه في جميع حالاتها مصابة بطلب المعرفة ، هذه المعرفة التي ظن أنه لابد ملاقيا ، فذهب وراها في أنحاء الكتب والصحف ، وتجري عنها في مشاهد الوجود .

دخل في أول نشأته أحد الأديرة يتلق اللغات القديمة التي كانت لب برامج التعليم القديم ، فأبدى من الذكاء والاتباه مارك أسانذته في دهشة منه ، حتى قال عنه أحدهم : ( نحن لانستطيع أن نقوم بواجب الشكر لهذا الطالب ، فان الدروس التي كان رفاقه يستقلونها كان يجدها لسهولتها كالألمانية ، إنه

وأهوائها الجامحة تظل مالكة لمظمتها ولنفسها، ومثل هذه الروح يتلها غثال (اللاوكون) بوجهه وأعضائه المتملبة في ساءة الألم العنيف. وقد لام هذا الشاعر الألماني شاعر إيطاليا الكبير (فرجيل) لأنه وصف (اللاوكون) بصورة شعرية خالف فيها الصورة التي تحتها الحفار. إذ تركه في مقطوعته الشعرية يعيح من الألم صيحات منكرة، ولكن ليسنج يجابه في كتابه نقد الشاعر الألماني، ويعتقد أن للشعر قواعده الخاصة، وللتحت قواعده الخاصة، ويرى أن في استطاعة الفن الشعري أن يمثل لنا الشيء حتى نحققه من جوانبه. بينما أن الفن الثاني لا يمثل لنا من هذا الشيء إلا لحظة موقوتة هي كل شيء في هذا الشيء. وبينما يرى الرسم يخضع للهيئة الجامدة التي يتلبس بها نرى الشعر حراً طليقاً يحيا بحركته واضطرابه واختلافه. وهكذا لبث هذا الكتاب أترا ناطقاً للرجل، وقد ترك وراءه صدى بعيداً وتأثيراً تراه في الأقطار. وهو كما قال فيه (جوته) شاعر الألمان «يجب أن تكون فتى أيها الرجل حتى تستطيع أنت تمثل ذلك التأثير الذي أدخله هذا الكتاب في أرواحنا» وكفى بهذه الكلمات التي يرددها جوته شهادة.

وهكذا أراد ليسنج أن يبني تقدمه على نظريات ثابتة لا يذهب بها الوهم. فاستمد قانون (أرسطو) يعمل به لتنظيف الأهواء. ومن هذا القانون قد استمد ليسنج أكثر نظراته النقدية كأنما كان يحاول أن يقتل الحدة والجروح والطيش في الأدب ويترك إلى العقل سبيلاً ينفذ منه ليقى مالكا على الأهواء في أعنف ثوراتها. وقد شاء ليسنج أن ينزرو حقل الأخلاق دأبه في كل حقل ينزوه، فكتب مقطوعات في الحكمة دلت على سمو نفسه. فهو يعتقد أن قيمة الرجل ليست بالفضيلة التي يحوزها، أو بالفضيلة التي ظن أنه يحوزها، ولكن قيمته تنحصر في الجهود التي يقوم بها في سبيل إحرازها، لأن المجد لا يتوقف على صفة الاحراز، ولكن على العمل للفضيلة التي يكثر به جنودها. ويمتاز هو بانتصارها. ويقول أيضاً «إذا الله قبض على الفضيلة الكاملة بيده اليمنى ووضع في يده اليسرى التوق الخالد — توق القلب — إلى الفضيلة. ملازجا معه انخداع الانسان، وقال لي: انتخب، فاني إذ ذاك آخذ بيده اليسرى بكل تواضع وأقول. أعطني يا إلهي.

[ البقية في أسفل الصفحة التالية ]

المهوشة... يجب عليك أيها المؤلف أن تخط لك طريقاً يملكك إلى المسرح الإنجليزي...»

وقد كان انقلابه فجأة إلى هذا المذهب وهذا الأدب موضع دهشة، إذ تبادر إلى أذهان بعض النقاد أن شكسبير وحده هو الذي أثر في ليسنج، على أن الأسباب الحقيقية التي ساقته إلى هذا الأدب كانت أعمق من ذلك. فليسنج بعد أن درس حتى درس أخلاق الشعب الألماني وجد أن الأساة الحماسية هي التي تبسط تأثيرها في النفوس. وأن الأساة المجردة يبنى لها أن تهبط درجة إلى عالم الحقيقة، وأن الكوميديا قد تكون أدنى إلى الحقيقة، وهي التي تثير ما تثير من نضحك ومن بكاء.

وفي النهاية انقمس ليسنج في التأليف المسرحي. فكان في أول أمره يترسم أقدام من تأثر بهم من الأقدمين، وهو خلال ذلك لا يترك الجهاد إلا استمداً آخر يفتقر إلى عنف كبير وصبر كثير، والغاية التي يتطلبها من وراء ذلك عظيمة، لا تلبث إلا للمثل هذا النوع من الجلال، فهو يريد أن يخلق أسلوباً جديداً وتفكيراً جديداً، وما زال يدأب ويجهد حتى وفق إلى سميحه بعض التوفيق، وضرب لعصره مثلاً عالياً للرواية التي تمثل أحسن تمثيل صفات قومه وأخلاق قومه. وهو — وإن لم يبلغ بروايته القمة التي لا تلبث خياشيمها إلا للمباكرة فقد كاد...

ثم طفق ليسنج يكتب في إحدى خلواته مقاطيع من الكتاب الذي خلد اسمه على الدهر في عالم النقد، كتاب [اللاوكون<sup>(١)</sup>] الذي حشر فيه خلاصة نظراته في التأليف المسرحي. وفيه عالج الشعر وعنى بأسلوبه والوسائل التي ترمي إلى إحيائه.

وما هو مذهب ليسنج في الشعر؟

لقد كانت المدرسة الرومانية تعتقد أن الشعر إن هو إلا تصوير صامت. والشاعر الألماني (فينجلين Winckelmann) كان يرد أصول الفن مما تنوعت فروعها إلى مثل عال واحد تنضوي تحته. وهذا المثل هو العظمة المتجلية بالسكينة... وهذا المثل الأعلى مثله كالبحر العميق يبقى هادئاً مهما تهاذفته قواذف الريح. وحاله حال تصاوير اليونان رقعى في إحدى ثوراتها

(١) Le laocoon هو كاهن عظيم خنقه وأبناءه صلان خرجا من الأمواج

[ أساطير اليونان ]